نظرية الثقافة والعولمة

قراءة في مشروع أنطوني كينج (Anthony king)

مقاربة نسقية

د / لخضر قريشي- المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة

تمهيد

يتسع الاهتمام بإشكالية (الثقافة والعولمة) قديمه وحديثه، حيث يتشعب ويتشتت بناء على تعدد المقاربات والمنهجيات، كتحليل المدخلات والمخرجات. فإذا كان البعض يركز على أسئلة الاقتصاد العالمي والشركات المتعددة الجنسيات في إطار عولمة رأس المال، والتطور المصاحب للأسواق المالية على المستوى الدولي. ركز آخرون على التغير الاجتماعي وإعادة بناء وتشكّل الهويات والخصوصيات الثقافية . بينما اهتمت الفئة الثالثة بتحليل المنظور القانوني وذلك بالبحث في التناقضات الناتجة عن العولمة، وذلك من خلال الاختلاف في بنية الأنظمة القانونية والسياسية من جهة، وصعوبة تحديد مفهوم دقيق وواضح لإشكالية (العولمة)، وبالرغم من الاختلاف بين المنهجيات في مقاربة مفهوم (العولمة) يبقى أنّه يثير الجدل نظرا لشساعة مجاله المعرفي والممارساتي، وتفاوت الباحثين في ضبط دلالاته، فهو يندمج دائما في الصراعات والنزاعات والتوازنات التي يشهدها العالم، وهذا ما رشحه كمفهوم ينبغي التعاطي معه وفق قراءة شمولية لا تلغي القراءات الأخرى، بقدر ما تعتمدها في التحليل والمساءلة والفحص . فهدفها دائما التحليل بمنهجية متعددة المستويات .

إن مرحلة الإنصات والتخير قادتنا إلى اختيار موضوع (نظرية الثقافة والعولمة . قراءة في مشروع أنطوني كينج [*]) فهو أستاذ (تاريخ الفن وعلم الاجتماع) بجامعة (نيويورك) حيث يجمع بين (نظرية الفن) من جهة، و(النظرية السوسيولوجية) من

(*) هذه المقاربة، هي عبارة عن محاضرة كانت قد ألقيت في فعاليات الملتقى الوطني الأول، تحت عنوان : **العولمة وحقوق الإنسان** . المنظّم من قبل كلية العلوم القانونية والإدارية، بجامعة المدية، أيام : 6/7/8/ماي/ 2008 م .

جهة أخرى . وله العديد من الإسهامات في حقل الثقافة، نذكر منها : (إعادة تصور المدينة) وهو بحث في العرقية ورأس المال والثقافة، وكذلك كتاب (الثقافة والعولمة والنظام العالمي) . الذي شكّل مدونة بحث هذه المقاربة، ومن أجل التواصل مع هذا المتن، سارت المقاربة وفق المتواليات الآتية :

1- نظرية الثقافة
2- مشروع أنطوني كينج
3- نظرية الثقافة وإشكالية العولمة (تحليل نسقي)

إن كل مفهوم سابق هو في حقيقة الأمر، منظومة قائمة بذاتها، لذا سيكون من الشطط والاختزال محاولة لملمة كل العناصر سالفة الذكر في هذا السياق، لكن مادام المقام لا يسمح ببسط أكثر يصبح لزاما التواصل مع العناصر السابقة وفق ما تمليه الظروف .

1- نظرية الثقافة

عندما نتحدث عن الثقافة لا بدّ من التأكيد على حضور عنصر آخر ملازم لها، إنّه المجتمع، لأن الثقافة لا تستقيم إلا في حضور هذا الأخير، أي المجتمع، فهي التي تمدّه ((بالأدوات اللازمة لاطراد الحياة فيه، لا فرق في ذلك بين الثقافات البدائية والحديثة))[1] فالأساليب والعقائد والقيم التي يسير عليها النّاس في حيواتهم، تعتمد على طبيعة الثقافة المنتشرة في أوساطهم . ومن هنا يتجلى عنصر الثقافة كمحور رئيس ينبغي تحليله وفهمه وربطه بغيره من العناصر المشكلة لبنية المجتمع، وعلى هذا حاول علماء الاجتماع منذ القديم تفكيك هذه البنية وفق ما توفر من منهجيات وآليات . لذا نجد أقدم التعريفات للثقافة، تعريف (إدوارد تايلور) الذي يعتبر أن الثقافة هي: ((كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع))[2] حيث أظهر التعريف السابق أن للثقافة جانبين :

1- الجانب المادي: أي كيف تتجلى الثقافة سلوكيا وماديا؟

([1]) مجموعة من الكتاب : نظريّة الثقافة . ترجمة : على سيد الصاوي . سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . ع223 . يوليو / تموز 1997 .ص 8 .

([2]) المصدر نفسه : ص 9

2- الجانب اللامادي: كالأخلاق، والقانون، والعرف... حيث يتفاعل الناس في المجتمع، فتتجسد السلوكات والعادات والفنون نتيجة الحراك الاجتماعي، فلولا هذا الأخير لما تكونت ثقافة، ويمكن أن نضيف تعريفا آخر لمفهوم الثقافة، إنه تعريف أحد علماء الاجتماع المحدثين (روبرت بيرستد) الذي يؤكد بقوله : **((إنّ الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في مجتمع))**[3] فالفكر والسلوك والمادة عناصر أساسية تدخل في بنية كل ثقافة، وذلك –طبعا- من خلال التفاعل الاجتماعي، الذي يتحدد بناء على خصوصية كل مجتمع، فالقيم والمعتقدات والأعراف والمعايير والرموز والأيديولوجيات والإنتاج الفكري، والعلاقات التي تحرك الأفراد وتوجههم في حيواتهم كلّها عوامل تشكل بنية الثقافة، ومن أجل فهم هذه البنية يركز علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا على تحليل العناصر الآتية :

((1- التحيزات الثقافية
2- العلاقات الاجتماعية
3- أنماط أو أساليب الحياة

واضح أنّها ظواهر أو عناصر مرتبط بعضها بالبعض في الكل المركب للثقافة، فالتحيزات الثقافية تشمل القيم والمعتقدات المشتركة بين الناس، والعلاقات الاجتماعية تشمل العلاقات الشخصية التي تربط الناس بعضهم بالبعض الآخر، أما نمط الحياة فهو الناتج الكلي المركب من الانحيازات الثقافية والعلاقات الاجتماعية))[4] هذا عن بنية الثقافة، لكن ماذا عن نظرية الثقافة؟

عندما نتحدث عن نظرية للثقافة، ينبغي التنبيه إلى أن النظرية تسعى دائما إلى دراسة وتحليل وفحص الثقافة، فالنظرية هي الأدوات والآليات والمنهجيات التي يشتغل بها علماء الاجتماع وذلك من خلال مستويات، نذكر منها:

1- البحث في المنشإ المتعلق ببنية الثقافة، ثمّ إن أسئلة المنشإ تختلف باختلاف كل مجتمع .

([3])المصدر نفسه : ص 10/9

([4]) المصدر نفسه : ص10

2- المستوى الثاني، يبحث في بقاء واستمرار ونمو وتغير الثقافة، فلماذا تبقى ثقافة ما وتختفي ثقافة أخرى ؟ وما هي عناصر البقاء والفناء في الثقافات، فهذه الأسئلة تجيب عنها نظرية الثقافة .

3- يهتم هذا الجانب، في كيفية التفعيل والمحافظة على أنماط الحياة في أبعادها الثقافية في مجتمع ما، ولماذا تفشل بعض المجتمعات في المحافظة على الأنماط الثقافية [5] الخاصة بها ؟

إن الثقافة تعليم وتربية، فهي ((مكتسبة وليست محمولة بيولوجيا، فهي تسمى أحيانا (الموروث الاجتماعي) أو (المخزون الثقافي) ونظرا إلى قدرات الإنسان المبدعة فهو لا يكتفي بالتعلم واكتساب الثقافة فقط، بل يضيف إليها أشكالا سلوكية مختلفة))[6] وعليه فمصادر الثقافة متنوعة وغنية وثرية لأنّها متغيرة في أحيان كثيرة وقابلة لإعادة التشكل من جديد، كما أنّها قابلة للاختراق والتعدد كلما اختلف الشخص والمكان .

فسلوك ما قد يفسر عند فئة على أنّه من قمة الحضارة، لكن في مجتمع مغاير قد يفسر على أنّه من قمة النذالة ؛ وتفسير ذلك أن السياق الثقافي قد تغير، فتغيرت معه المعطيات . لذا فالثقافة فيها الطابع الإلزامي من جهة، والطابع الاستقلالي من جهة أخرى . وعليه نتساءل عن مصادر الثقافة، وكيف يمكن قياس مؤشراتها ؟

إن المؤشرات التي على ضوئها تتحدد مصادر الثقافة، يمكن أن نوجزها في النقاط التالية:

1- 1- الدّين: يمثل الدين ثقافة كاملة، لأنه يقدّم للإنسان رؤية حول الكون وما وراءه، فهو يحدد نماذج روحانية في حين يرفض نماذج أخلاقية أخرى [7].

1. **القيم الثقافية:** إن تحديد مفهوم دقيق للقيم يبدو صعب المنال، بيد أنّ علماء الاجتماع يؤكدون على أنّ القيم ((هي دائما قيم مجتمع مخصوص، إنّها المثل التي تتخذها جماعة من الجماعات وتنتسب إليها، فالقيم والحالة هذه خاصة بمجتمع بعينه

([5]) المصدر نفسه : ص 10

([6]) عبد الغني عماد : سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . لبنان . ط1 . شباط / فبراير 2006 . ص115 .

([7]) المصدر نفسه : ص 138

وبفترة زمنية تاريخية ؛ لأن القيم تتغير في الزمان وتتغير من مجتمع لآخر))[8] وهي غير ملزمة ربّما إذا تغيرت الفترة والمكان .

2. **العادات والأعراف:** تنقسم العادات إلى فردية وأخرى جماعية، فإذا كانت الفردية ملزمة للفرد وحده، فإن العادات الجماعية نشأت ((تبعا لظروف مشتركة في مجتمع معين ومارسها عدد كبير، فمن الممكن أن تصبح عادة جماعية، إنّها مجموعة من الأفعال والأعمال وألوان السلوك))[9]

3. **التقاليد والشعائر والطقوس:** إن مفهوم التقاليد والشعائر والطقوس من الناحية السوسيولوجية يوحي بارتباط ((الإنسان الاجتماعي بتراثه المادي – الروحي ؛ ومحاولته بعثه من جديد عن طريق إعادة إنتاجه ماديا أو روحيا بإقامة الاحتفالات المعبرة عن مناسبات معينة، فترتدي في كل احتفال منها طابعا خاصا به، وأنواعا معينة من السلوك الطقسي والرمزي غالبا ما يكون غير مفهوم أو غير مفكر فيه، فيأخذ طابعا شعبيا ومنحى فولكلوريا ينتهي عادة بانتهاء المناسبة الاحتفالية، إلا أنه يبقى راسخا في وعي أو لاوعي الجماعة التي تتناقله جيلا عن جيل، وتشعر نحوه بقدر كبير من التقديس، وترى أنّه من الصعب، بل من المستحيل العدول عنه، وهذا ما يميزها (التقاليد) عن العادات . والتقاليد بهذا تمثل عناصر الثقافة التي تنتقل من جيل إلى جيل عبر الزمن وتتميز بوحدة أساسية مستمرة وهي نمط سلوكي يتميز عن العادة بأن المجتمع يقبله عموما دون دوافع أخرى، عدا التمسك بسنن الأسلاف))[10]

4. **التراث الشعبي والفولكلور:** يتمظهر التراث الشعبي من خلال عدّة بنى : كالفولكلور، الموروث الثقافي، المعتقدات الشائعة، الخرافة، الأساطير[11] ... إلخ . فكلها تشكل المخيال الفردي – الجماعي .

([8]) المصدر نفسه : ص 140

([9]) المصدر نفسه : ص153

([10]) المصدر نفسه : ص155/ 156

([11]) المصدر نفسه : ص 158

2- مشروع أنطوني كينج

يتجسد مشروع (أنطوني كينج) من خلال كتابه المعنون بـ (الثقافة والعولمة والنظام العالمي) وكما هو واضح يتساءل القارئ بداية كيف يمكن الجمع بين الأنساق الثلاثة:

1- نسق الثقافة

2- نسق العولمة

3- نسق النظام العالمي

يعترف (أنطوني كينج) كغيره من القراء بهذه الملاحظة المنهجية، حيث إنّ لكل مفهوم سابق دلالات خاصة قد لا تنسجم بالضرورة مع المفهومين الآخرين، فإذا كانت الثقافة هي خاصية تمتلكها كل الشعوب، والعولمة هي عملية متطورة، فإن النظام العالمي يشكل بنية زيادة على أنّ كل نسق سابق هو منظومة قائمة بذاتها.

فالثقافة تتجسد بشكل واضح من خلال اللغة والطقوس والدين ونمط البناء والعمران ... إلخ، بينما النظام العالمي، هو الاقتصاد العالمي، فاللغة يمكن لها ((أن تلتقط سمات ثقافة الاقتصاد العالمي الرأسمالي))[12]، أما العولمة فيحددها (أنطوني كينج) من خلال المفهوم المكاني، أي ثنائية (القرب / البعد) من المركز، حيث تتمركز الأشكال التعبيرية والتأثيرات ورؤوس الأموال في أمكنة محددة من العالم، لذا ف ((العولمة ليست عملية تتم في اتجاه واحد، كما أنّها لا تأتي من مصدر واحد، وعلاوة على ذلك لا تحظى آثارها بتوزيع متساو في وضع عالمي يتسم بالتفاوت البين في التطور))[13] ومن أجل فهم أعمق للعناصر السابقة ينبني الكتاب على عدّة تصورات، فهو موزع على مقالات ساهم في إعدادها نخبة من المفكرين، بالتنسيق مع (أنطوني كينج)، حيث يمكن أن نذكر المتواليات التي سارت عليها التصورات، وهي وفق المنطق التالي:

1- فضاءات الثقافة، فضاءات المعرفة. أنطوني كينج

2- المحلي والعالمي : العولمة و الإثنية. ستيوارت هول

([12]) أنطوني كينج : الثقافة والعولمة والنظام العالمي . ترجمة : شهرت العالم . هالة فؤاد . محمد يحيى . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة . مصر . 2005 . ص 28 .

([13])المصدر نفسه : ص11

3- هويات قديمة وجديدة، إثنيات قديمة وجديدة. ستيوارت هول

4- النظرية الاجتماعية، والنسبية الثقافية، ومشكلة العالمية. رولاند روبرتسون

5- القومي والعالمي : هل يمكن أن توجد ثقافة عالمية ؟ إيمانويل والرشتين

6- سيناريوهات ثقافات الأطراف. أولف هانرز

7- سؤال لنظريات العولمة، ما بعد الثرثرة حول العالمية. جانيت أبولغد

8- لغات ونماذج للتبادل الثقافي. باربارا أبو الحاج

9- الخصوصية والثقافة. مورين توريم

10- العالمي، الحضري، والعالم. أنطوني كينج

11- العولمة، والنظرة الشاملة، والمجال الخطابي. جون تاج

12- العالمي والمعين (المخصص): التوفيق بين نظريات الثقافة المتعارضة. جانيت وولف

من بين الأسئلة التي يطرحها (أنطوني كينج) تلك المتعلقة بالعولمة، حيث يمكن أن نذكر بعضا منها :

((- هل تتضمن العولمة بداهة قضية الاتصال المتبادل ؟ (...)

- و هل تتضمن التجانس الثقافي، والتزامن الثقافي، أو التوالد الثقافي ؟

- وماذا نقول فيما يتعلق باتجاه التدفقات الثقافية ؟

- و هل هي نتاج تفاعل المحلي والعالمي ؟))[14]

ومن أجل تحليل الأسئلة السابقة، ينبغي تحديد اختيارات وآليات التحليل بقدر كاف، قصد تجنب الاختزالية والعمومية، لذا راح (أنطوني كينج) يوسع من خيارات المقاربات بدل تقديم الحلول الجاهزة، ومن أمثلة ما يؤكد عليه صاحبنا ما يلي :

1- إن الثقافة ينبغي أن تبحث تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ومكانيا بصورة تخصصية جدّا على النطاق العالمي.

2- عند إلقاء نظرة شاملة شديدة العمومية على العولمة تحجب الاختلاف على النطاق المحلي والإقليمي أو القومي ... وعليه فبدلا من النظر في العمليات والتطورات من

(14) المصدر نفسه : ص 30

القمة إلى القاعدة، ومن المركز إلى الهامش، ربّما يمكننا أن نعي المسألة بشكل أفضل لو نظرنا إليها من القاعدة إلى القمة أو (من الوجهة النقيض)، أو اللامركزية.

3- إن تصورات مثل (الغرب) و(العالم الثالث) و(العالم الأول) و(المركز والهامش) أنتجت دوما في الخطاب باعتبارها أبنية مصبوغة بصبغة إيديولوجية[15] .

إن مشروع (أنطوني كينج) ساهم في إعداده مجموعة من الباحثين يجمعهم أمر واحد هو: ضرورة تفعيل البنية الثقافية، ذات الخصوصية المحلية.

لذا نجد (ستيوارت هول) يشير إلى ((أن البشر يمتلكون هوّيات ثقافية متنوعة، أضف إلى ذلك أن المرء يسعى خلال الحياة (ملتقطا) للهويات، بهذا المعنى، يغدو بناء الهوية أمرا لا يكتمل أبدا، ولا ينتهي))[16] وهذا ما يجعل البنية الثقافية عاملا جوهريا في بناء الأفراد والمجتمعات، وعليه ينبغي الترويج لها وفق مبدإ الحوار والاتصال المتبادل .

يتأسس مشروع (أنطوني كينج) في بنيته المعرفية انطلاقا من مجهود (بيير بورديو) السوسيولوجي الفرنسي، فهو يستدعيه من أجل تحديد مفاهيم الثقافة، خاصة مفهوم (المأوى العام)، حيث يقول: ((إن العالم المادي يشكل ما هو ذهني، والذهني يشكل المادي، والثقافات تتكون في المكان وتحت ظروف اقتصادية واجتماعية محددة، وهي تبنى ماديا واجتماعيا كما تبنى اجتماعيا سواء فيما يتصل بالأسس الاقتصادية لحياة الناس والأقاليم والأمكنة التي يسكنونها أو درجات الفروق بينهم أو المعاني الرمزية للعالم الذي يخلقونه أو الطريقة التي يصورون بها أنفسهم من خلال بيوتهم أو العلامات المرئية التي يستخدمونها لنقل المعاني وتوصيلها، فهذه كلها جزء مما يشير إليه بورديو بالمأوى العام. أي نظام من التوجيهات وطريقة المعيشة، والأبنية والفضاء التي تشكل البيئة أكثر من مجرد تصوير للنظام الاجتماعي أو مجرد بيئة تجري فيها العلاقات والأفعال الاجتماعية، إن الشكل المادي والمكاني يكوّن الوجود الاجتماعي والثقافي كما يعبر عنه، والمجتمع يتشكل إلى حدّ كبير من خلال المباني والفضاءات التي يقيمها، وفي

([15]) المصدر نفسه : ص 31/30

([16]) المصدر نفسه : ص 34

تناولي لموضوع الهويات تعدّ البيئة المبنية للفضاء والمكان عاملا حيويا وحاسما من شأنه أن يعوق بقدر ما يسهل الجديد بجانب بناء الهويات الاجتماعية))[17]

إن مفاهيم مثل (الحقل) و(الرمزية) و(الرأسمال الرمزي) ... وغيرها تحضر بقوة في نظرية (بيير بورديو) السوسيولوجية، الذي يقول : ((الرأسمال عمل متراكم (بشكل مجسد أو متقمص) يجعل المالكين قادرين على أن يمتلكوا الطاقة الاجتماعية على شكل عمل مشيإ أو حي، وذلك عندما يكون موضوع امتلاك خصوصي)) [18]، لذا اعتمد (أنطوني كينج) على هذا الملمح في بناء منظومته المعرفية، فهو يستعير ويستدعي مفهوم (بيير بورديو) حول (المأوى العام) الذي هو بنية من الآليات والتوجيهات أو هو (الجهاز الاجتماعي) التوجيهي لطريقة العيش والتحرك داخل نسق المجتمع، لكن (أنطوني كينج) لا يكتفي بنظرية (بيير بورديو) بل يتوسع إلى (إيمانويل والرشتين)، حيث يقول : ((ولعلنا نأخذ أحد الأسئلة التي طرحها إيمانويل والرشتين كيف ترسم الحدود حول ثقافات بعينها ؟))[19]

يعتبر (أنطوني كينج) أن المتحكم المحوري في رسم الحدود حول الثقافات، والثقافات الفرعية هي سلطة البنية (الاقتصادية السياسية والاجتماعية) والذي يتحكم في إدارة هذه البنية هو :

1- سلطة الدولة
2- سلطة السوق
3- سلطة الجماعة العرقية
4- سلطة الناس المقيمين داخل هذه النطاقات أو خارجها .

إن من بين الملاحظات التي يسجلها (أنطوني كينج) وهو يتتبع عمل زميله (هانرز) قوله : ((لفت اثنان أو ثلاثة من المتحدثين انتباهنا إلى دور الدولة كمنظم رئيسي

([17]) المصدر نفسه : ص 222

([18]) بيير بورديو . ج . د . فاكونت : أسئلة علم الاجتماع في علم الاجتماع الانعكاسي . ترجمة : عبد الجليل الكور . دار توبقال للنشر . الدار البيضاء . المغرب . ط1 . 1997 . ص 84 .(انظر الهامش)

([19])أنطوني كينج : الثقافة والعولمة والنظام العالمي . ص 222

للثقافة بل امتدحوا هذا الدور وقدّروه، ويجدر بالذكر أنّه بينما يلاحظ (هانرز) تقوية الهوية القومية في الأطراف يشير (هول) إلى تآكلها في المركز (...) إن معظم الدول القومية (والكثير من جماعات الأقلية كذلك) تسير الآن لتخليق ثقافات منفردة خاصة بها، وهم يستوردون التعريفات الغربية (بما فيها الأنثروبولوجية) عن ماهية الثقافة، كما يستوردون الأساليب الفنية الغربية لمعالجة ثقافاتهم المختلفة ، وهم يروجون (صورة الذات الثقافية) الخاصة بهم على المستوى الدولي في سعي لاجتذاب السياحة مرتفعة العائد اقتصاديا، وباختصار يريد الجميع عرض ثقافاتهم في متاحفهم، ويدل هذا كلّه على أن الحداثة لم تغز العالم فحسب بل أعلنت عن نشأة المجتمع العالمي (لما بعد الحداثة) ذي الثقافة المختلفة والوقائع والمشاهد المزيفة))[20] يظهر المشهد النقدي السابق عدّة إشكاليات، فبدل أن يتجه التحليل نحو اقتراح الحلول راح (أنطوني كينج) يوسع طرح الإشكاليات وهذا ملمح مهم ويعبر عن قوة حضور النطاق الفكري الذي يشتغل ضمنه الباحث ؛ فالعالم اليوم يشهد ثورة قوية في الميدان الثقافي إذ كل أمّة تسعى للترويج لصورتها الثقافية، قصد الاستثمار الاقتصادي – السياحي، فالعائدات من هذه الناحية مغرية جدّا، لكن القول السابق طرح إشكالية في غاية الخطورة، تمس خاصة فئة المثقفين والمهتمين بالشأن الثقافي، وهي: ضرورة إنتاج تعريفات ومفاهيم أنثروبولوجية حول ماهية وبنية الثقافة ، لأنّ الثقافة في قوة حضور المحلي قبل العالمي . هذا أولا، أمّا ثانيا فلا بدّ من إنتاج أدوات ونظريات للتحليل وفق ما تقتضيه الثقافة المحلية، فالمنهجيات والآليات التي تسعى إلى مقاربة الثقافات لا بدّ أن تنبع من المحلي قبل العالمي، وهذا – طبعا – لا يتنافى ولا يتناقض مع ضرورة الاستفادة من تجارب الآخرين، لكنها ملاحظة لو صدرت من مفكر عربي لبدا الأمر فيه ما يشبه الدعوة إلى الانغلاق على الذات .

إن العولمة أنتجت أشكالا جديدة للمعرفة وعلى سبيل المثال، ضرورة تطوير لغة مشتركة بين الشعوب، قوامها المحبة والحوار .

([20])المصدر نفسه : ص 224

هذه بعض الجزئيات البسيطة التي حاولنا في هذا السياق ذكرها، لأن مشروع (أنطوني كينج) ورفاقه من أصحاب النظرية الثقافية – السوسيولوجية، كثير وكبير جدّا، ويطرح قضايا تحتاج إلى فريق عمل .

3- نظرية الثقافة والعولمة، مقاربة نسقية

إن مفهوم (التحليل النسقي) هو من المنهجيات الحديثة التي مازالت تفرض نفسها في الواقع المنهجي، حيث دخلت هذه المقاربة من (تحليل النسق السياسي Système Analyse Du politique لصاحبه David Easton دافيد ايستون) الذي يقول: ((يمكن تعريف المنظومة السياسية بأنّها مجموع التفاعلات التي بواسطتها توزّع المواد ذات القيمة عن طريق السلطة في المجتمع))[21] حيث انتقل بعدها التحليل النسقي إلى الدراسات السوسيولوجية ،و الدراسات النقدية [*] و غيرها .

ومن جملة ما يعنيه مفهوم النسق هو الطريقة والتنظيم والانسجام . ومادام (دافيد استون) يقيم تحليله النسقي وفق مبدإ سلطوي، يصبح من الضروري اعتبار (العولمة) هي المتغير المستقل، أي هي المؤثر والمسبب والمسيطر على بقية العناصر، بينما (الثقافة) هي المتأثر أو النتائج المترتبة عن دخول العولمة، لذا سينصب التحليل النسقي ((فقط على علاقات النسق بمحيطه، أي على تأثير المحيط على النسق، والطريقة التي تتم بها، والكيفية التي يحافظ بها النسق على توازنه في استجابته لهذه التأثيرات))[22] وعليه يمكن الخروج بجملة من الملاحظات :

1- أن التحليل النسقي هو عبارة عن دورة تقع داخلها كل المعاملات بين النسق ومحيطه.

([21]) فيليب برو : علم الاجتماع السياسي . ترجمة : محمد عرب صاصيلا . المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت . لبنان . ط2 . 2006 . ص141 .

([*]) يمكن أن نشير فقط إلى بعض النماذج عن الدراسات النسقية :

- عبد الله العروي : مفهوم العقل
- محمد مفتاح : التلقي و التأويل مقاربة نسقية
- أحمد بوحسن : العرب و تاريخ الأدب ، حيث يخصص فصلا كاملا عن مفهوم النسق .

([22]) جان بياركوت . جان بيارمونيي : من أجل علم اجتماع سياسي . الجزء الأول . ترجمة : محمد هناد . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر .1985 . ص 194 .

2- هذه الدورة حتى لا نقع في الشطط، نفترض بناء على الرؤية النسقية ، ليس لها بداية ولا نهاية (ونتجنب بذلك إشكالية البيضة أسبق أم الدجاجة).

3- الدورة السابقة في تحرك دائم ومن ثمة فليس هناك مطلب، ثم قرار، ثم تأثير عكسي، لذا فالمطلب الأصلي ذاته مسبوق بأثر عكسي .

4- يضم التحليل النسقي العناصر التالية :

- العلبة السوداء
- المدخلات - - - - - - المطالب + التأييدات
- المخرجات
- المحيط
- التأثير
- الطاقة [23]

ومن أجل التواصل مع المقاربة النسقية سنعمل على تقديم المثالين أو النموذجين التاليين :

النموذج الأول: العولمة تمثل نسق رئيس في المحيط، الذي يتشكل بدوره من مجموعة أنساق، لأن المحيط هو أكبر من النسق ، بينما الثقافة هي تمثل العلبة السوداء .

لقد نتج عن نسق العولمة في النسق الثقافي الجزائري ، عدّة مظاهر يمكن أن نقدم أحد تمظهراتها والمتمثل في البارابول الذي هو آلية للمدخلات يحمل الأشكال التعبيرية الجديدة بالنسبة لنسق الثقافة الجزائرية، وهذه الأشكال التعبيرية نوعان:

1- الأشكال التعبيرية المقبولة مباشرة

2- الأشكال التعبيرية المرفوضة مباشرة

أساس (الرفض / والقبول) راجع إلى التخصيص في الطاقة، داخل النسق الثقافي، وعليه نميز الحالات الآتية :

([23]) المصدر نفسه : ص 195

1- تأييدات مقبولة :

1- 1 الشكل التعبيري المقبول (التأييدات)، جمهور القنوات السياسية (الجزيرة/ العربية/ CNN ...) أسباب القبول لوجود طاقة أو حصة غير مستغلة داخل النسق الثقافي الإعلامي الجزائري .

1- 2 الشكل التعبيري المقبول، التأييدات، جمهور القنوات الدينية (اقرأ / الناس/المجد/... القنوات ذات الطابع الديني) أسباب التعلق والقبول وجود حصة غير مستغلة داخل النسق الثقافي الإعلامي الجزائري.

1- 3 الشكل التعبيري المقبول، جمهور القنوات الرياضية، تجلياته (الجزيرة الرياضية / Euro sport /TPS FOOT طبعا أسباب القبول وجود طاقة أو حصة غير مستغلة داخل النسق الثقافي الإعلامي الجزائري وهكذا بالنسبة لبقية التأييدات المتعلقة بالجمهور المتعدد الأذواق (كالقنوات الثقافية / أو المتخصصة في الأفلام / أو السياحة / أو الطبيعة / أو التاريخ ...)

2- مطالب:

2- 1 الشكل التعبيري المرفوض، جمهور القنوات الجنسية

2- 2 الشكل التعبيري المرفوض، جمهور القنوات المسيحية

3- المحصلة:

التأييدات تدخل مباشرة، ولا تطرح المطالب أيّ إشكال ، تبقى تلح وتصر لأنّها لا تنتظر قرارا من أحد، فهي تخلق نوعا من الضغط وعدم التوازن داخل النسق الثقافي الإعلامي (الجنسي / الديني)، وهذا الأمر يستدعي خلق أو إيجاد (مخرجات) أو (متنفسات) للنسق الثقافي ، وهذا راجع لخلل وظيفي في النسق نتيجة قوة المطالب وضغطها ،حيث يمكن ذكر بعض تجلياته، فيما يلي :

3- 1 فيديو– كليب: نساء شبه عاريات/الإيماءات والإيحاءات الجنسية/ التصوير في غرف النوم/اللباس والموضة ، فالنمط الثقافي الجديد لا بدّ أن ترافقه أشكاله التعبيرية ...

3- 2 الخطب الدينية: ردّ فعل حول الظاهرة، فهي عبارة عن تغذية ارتدادية أو تأثير عكسي، يتجلى في نزعة التشدد نحو الظاهرة السابقة .

ملاحظة: الهدف من المخرجات هو لكي يحافظ النسق على ذاته، والبقاء لأطول فترة زمنية ممكنة، هذا عن الملاحظة الأولى، أمّا الملاحظة الثانية، فهي أن العولمة عبارة عن نسق وليست (بارابول) أو (فيديو –كليب) حتّى لا أقزم أي نسق موجود له علاقة بكل الأنساق الأخرى .

النموذج الثاني : يتعلق النموذج الثاني، بالنخب الثقافية الجزائرية، وحتى لا أقع في التعميم أحاول أن أشير فقط إلى نقطة واحدة ومختصرة جدّا، لأنّ موضوع النخب إشكالية تحتاج إلى فريق عمل، حيث تتمثل هذه النقطة في : افتقار بعض النخب لنظريات سوسيولوجية جزائرية في قراءة واقع الجزائر.

وهذه الظاهرة هي من نتائج العولمة، حيث جعلت المثقف الجزائري يستعير نظريات ومفاهيم خاصة بالمجتمعات الأخرى، وحتى لا نصنف ضمن فئة رفض ثقافة الآخر، نقول بضرورة الانفتاح والاستفادة من المنجز الفكري والعلمي والحضاري وغيرها من الإنجازات الوافدة من الآخر، كل ما نودّ أن نشير إليه في هذه النقطة أو الجزئية البسيطة والمتواضعة، ما يلي :

من مظاهر العولمة الإنتاج الفكري العالمي القادم من أمريكا وأوربا، حيث تتجسد

(المدخلات) في النظريات والمفاهيم السوسيولوجية والاقتصادية، فهذه الأخيرة تمثل مدخلات، بينما الشكل التعبيري أو المطلب هو استعارتها، أيّ : النظريات والمفاهيم في قراءة المجتمع الجزائري، لذا نميز في الأشكال التعبيرية مايلي :

1- الشكل المقبول، ويتجلى في التأييدات من خلال النظرية الماركسية، حيث دخلت عن طريق المساواة، وهي ضرورة سار بها المجتمع الجزائري، نظرا لوجود حصة أو طاقة غير مستغلة في النسق الثقافي الأكاديمي الجامعي لدى النخب لذلك كان عندها القبول والتأييد للدخول .

2- الشكل المرفوض، نظرية التطور (أصل الإنسان قرد) وتفسير الرفض عدم وجود حصة أو طاقة، لأن ما يقابله في النسق الثقافي وجود جواب حول أصل الإنسان في النسق الثقافي الديني .

المخرجات :

1- الشكل المقبول : دخل التأييد الجديد ورفض القديم وتخلى عنه ،و هو لا يطرح أيّ إشكال، وتفسيره أنه يتم بطريقة لاواعية .

2- الشكل المرفوض : قفز فوق مكون من مكونات المجتمع الجزائري، الذي هو الدين وأبعده من التفسير السوسيولوجي .

ملاحظة : إن من بين المخرجات القفز عن مكون الدين أثناء استعارة النظريات والمفاهيم الأخرى، هذا ما يؤدي إلى تغذية ارتدادية لهذا المكون الذي يسعى بدوره في إطار نسق آخر هو النسق الديني، من أجل إيجاد مخرج له يتمثل في بلورة نظريات ما أصبح يعرف ب (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، طبعا لا تهدف هذه القراءة إلى الدفاع عن فكرة معينة بقدر ما تهدف – كما قلنا في بداية التحليل النسقي – إلى التنبيه فقط إلى كيفية عمل النسق والآلية التي يشتغل بها .

- النتائج

من بين النتائج التي توصلت إليها هذه المقاربة ما يلي :

1- مشروع (أنطوني كينج) ليس مشروع فرد، بقدر ماهو مشروع مجموعة من النخب ذات التكوين السوسيولوجي .

2- جهاز القراءة عند (أنطوني كينج) هو جهاز معرفي منهجي مركب من عدّة خلفيات، فهو يستعير منهجيات أخرى، كمنهجية (بيير بورديو) ومنهجية (إيمانويل والرشتين) وغيرها من المنهجيات .

3- مشروع (كينج) هو قيد التشكل، حيث لم يكتمل بعد، خاصة وأن مفهوم الهويات يظل يتحدد باستمرار، وغير منته.

4- يعتمد (أنطوني) في تحليله على ضبط التحولات الحاصلة على مستوى الذات والمكان والبيئة .

5- يلح (أنطوني) على ضرورة إنتاج تعريفات ونظريات ومفاهيم محلية، خاصة حول الأنثروبولوجية وماهية وبنية الثقافات لأن ما يحكمها هو الخصوصية، أكثر مما هو مشترك .

6- إن نسق العولمة ينبغي التعامل معه ليس في صده وغلق الحدود، لأن هذه العملية أصبحت آلية قديمة تجاوزها الزمن، بل في تفعيل وتثمين الفعل الثقافي المحلي، وهذا التفعيل من خلال إعادة اكتشافه وقراءته وفق منظور جديد، وبأدوات حديثة، وليس من خلال التقديس والتدليس والبهرجة والمناسباتية .

7- إن فكرة الحدود الثقافية تتجه نحو التآكل التدريجي، ذلك أن الضخ والبث الرقمي أقوى بكثير مما هي عليه الحدود الثقافية المحلية، لذا ينبغي وضع استراتيجية ثقافية، وليس ببكائيات على أيام زمان، لأن التحولات في نظام الصورة والصوت لا تنتظر أحدا .

8- أمام هذه الأنظمة الرقمية المبهرة، التي تكتسح كل القيم والنظام الرمزي الاجتماعي المحلي، ينبغي التفكير في فتح المزيد من الحريات أمام الإبداع لأن الطاقات في الوطن العربي مازالت مكبوتة ومسيجة، فالإبداع لا بدّ أن يواجه بإبداع مضاد .